شـــلر

للكاتب الكبير توماس كارليل

ترجمة الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

تتمة

مور : من فوضى بهذا ؟ — إن الظلام مخيم على كل مكان ، متاهات شائكة ، لا منفذ ، ولا نجم هاد ، يا ليتني تخلصت من هذا النفس ، وكل شيء منه كهزلة مؤسفة ، ولكن مامصدر هذا العطش الشديد للسعادة ! ما مصدر فكرة الكمال الذي لا يمكن التوصل إليه ! وهذا الاستمرار في وضع الخطط الفاشلة ، إذا كان الضغط الطفيف على هذا الشيء التافه (ممكا السدس) يجعل من الحكيم والأحمق ، والجبان والشجاع ، وعزيز النفس وذليلها سواسية كأسنان المشط ، وإذا كان الانسجام الإلهي موجودا في الطبيعة غير العاقلة ، فلم هذا النشاز في الطبيعة العاقلة (١) ؟ — كلا ! كلا إن هناك شيئا خلف كل هذا ، لأنني لم أعرف العادة مطلقا إلى الآن . أتعتقدون بأنني سأرتجف بأرواح الذين أهلكتهم ! ؟ لا لن أرتجف (يرتجف بعنف) — فأنينكم الخافت الميت ووجوهكم المختنقة السوداء ، وجروحكم الفاغرة المرعبة ما هي إلا حلقات في سلسلة القدر ، ومصيرها في النهاية يتوقف على ألاعيب الصبيانية وعلى نزوات مربياتي ومعلمي ، وعلى مزاج والدي (مرتجا من الرعب) لماذا جعلني بريلوس عجلا نحاسيا لأشوي الإنسانية المسكينة في معدتي الملتهبة ؟ (محدقاً في السدس) الآن يمكن ربط الزمان والخلود في لحظة واحدة ! — أيها المفتاح المرعب الذي يغلق خلفي سجن الحياة ، ويفتح قدامي مسكن الليل الخالد — آه ، قل لي ! قل لي — إلى أين — إلى أين ستقودني ؟ أ إلى الأرض الغريبة التي لم يعد منها إنسان . أنظر ، إن الرجولة تنهار أمام هذه الصورة ويستسلم الإنسان لهذا المنظر المروع ، والوهم الذي هو مسخ الشعور الزق يلعب بنا بصورة غريبة . كلا ! كلا ليس من شأن الرجل أن يتأرجح ويخور في ساعة الحرج . كن من تشاء ، إنني أحتفظ بذاتي معي . أنا جنتي وأنا ناري . وإذا أردت أن ترسلني وحيداً فريداً شريدا طريداً إلى ركن مشتعل من أركان الكون . هذا الركن الذي أقصيته عن ناظريك ، هذا المكان الموحش المظلم والصحراء المخيفة التي لا حراك فيها ليصبح ذلك كل ما آمله وإلى الأبد . إني سأعمر هذا القفر الصامت بهواجس ، وسأتخذ من الخلود مجالا للكشف عن سورة البلاء اللانهائي

أو أنك ستقودني من ولادة لأخرى ، ومناظر أخرى للألم المفجع قدماً إلى الفناء . أليس في مكنتي قطع أسباب الحياة كما أقطعها هنا والآن ؟ هل لي أن أموت في سبيل حياة تعسة ؟ هل سأمنح الشقاء نصراً علي ؟ — كلا — إنني سأحتمل هذه الحياة (يرمي بالسدس بعيداً) ولتثلم التعاسة نفسها على صخرة كبريائي . إنني سأسير محتملا إياها ( )

* * *

وفي مؤلفه (عذراء أورليانس) (٢) نجد تالبوت ، ذلك المحارب القديم ، الأشهب ، الملحد ، الذي لا يقهر ، وهو يمر مفكرا بأرض العدم ، مستهزئا حتى بالقدر الواقف له بالمرصاد ، وهذا المنظر هو المنظر السادس من الفصل الثالث و (في زحام المعركة)

(يتغير المنظر فيصبح فسحة متبسطة محاطة بالأشجار . وفي أثناء عزف الموسيقى يرى الجنود وهم يهربون من ساحة القتال) تالبوت ، متكئا على فاستولف ، يرافقه بعض الجنود . يقبل ليونيل بعدئذ بسرعة

تالبوت : ضعني هنا ، تحت هذه الشجرة ، واعمدوا إلى المعركة : أسرعوا أنا لا أريد مساعدة كي أموت

(يدخل ليونيل) فاستولف باليوم الشؤم ! أنظر ، ليونيل ، ماذا يعتريك ، إن قائدنا الجريح يموت

ليونيل : لا سمح الله : آه يا تالبوت الجليل ، إن هذا ليس وقت الموت ، لا تستسلم للموت ، واجبر الطبيعة المترددة بقوة روحها حتى لا تفارقك الحياة

(١) يقصد بالطبيعة العاقلة الجنس البشري

(٢) الفصل الرابع المنظر السادس

(٣) هي جان دارك القديسة المشهورة

تالبوت : عبثاً : إن يوم القضاء قد حم ، هذا القضاء الذى يسوى جبروت فرنسا بالرغام . وعبثاً ما ضحيت بأعز شئ لدى للصمود فى هذا التصادم الضارى وفى هذه المعركة اليائسة . لقد أصابت فى الساعة مقتلا فتحطمت . وها أنى مضطجع لا قومة لى بعد الآن . لقد خسرنا (ويمز) ، فأسرعوا لإنقاذ باريس

ليونيل : إن باريس بيد الدوفان ، وقد وصلتنا الآن الأنباء السيئة بأنها استسلمت

تالبوت : (يمزق ضماداته) وإذن تدفق يا سواق الحياة ، إن هذه الشمس أصبحت ممقوتة لدى

ليونيل : فاستولف ! انقلوه إلى المؤخرة : إن هذا الموقع يمكن أن يصمد لحظات أخرى ، إن الخبثاء الجبناء يتراجعون ، لقد أقبلت الساحرة التى لا تقاوم ، يحيط بها الدمار والخراب

تالبوت : أيها الجندى ، إنك تنتصر وأنا أستسلم ؛ إن الآلهة أنفسهم ضعاف أمام البلادة والخرق ، وأنت يا آلهة العقل ، يا ابنة الإله الأكبر ، يا مؤسسة نظام الكون ، وقائدة النجوم ، من أنت إذا كنت مربوطة بذيل الحصان الأخرق ، حصان الخرافة ، إنك ستندفعين بعيونك المفتحة وصراخك المدوى إلى الهوة السحيقة مع ذلك الحيوان السكير ؟ ملعون من يربط مصيره بمصير العظماء والأشراف والنبلاء ، إن هذا العالم ملك سلطان أحمق

ليونيل : آه ، إن الموت قريب ! ففكر فى إلهك وصل ، ولو أن القدر هو الذى نصر الشجعان على أمثالنا المغاوير لما اهتممنا قيد أنملة ، ولكن إن تسحقنا مثل هذه الأضحوكة الوضيعة (٤) فأمر لا يستحق منا كل هذا التعب وكل هذه المخاطر

ليونيل : (يمسك بذراعه) وداعا ، تالبوت ! سأبكيك بملء دموعى إذا بقيت حيا بعد انتهاء المعركة . ولكن القدر يدعونى الآن إلى ساحة المعركة ... وداعا ! إلى الملتقى وراء الشاطئ غير المنظور ، وداعا ميتورا لصداقة طويلة ولكن الله معك (يخرج)

تالبوت : إن كل شئ سينتهى آجلا ، وسأسلم إلى الأرض وإلى الشمس الأبدية هذه الذرات الفانية التى امتزجت ، إن خيرا أو شرا ، لتكونني . أما تالبوت الجبار الذى ملأ صيته العالم فلن يبق منه إلا كومة من التراب السافى . وهكذا يؤول الإنسان إلى نهايته ، وكل نضالنا فى الحياة هو معرفتنا أنها عدم فى عدم ، وما علينا إلا أن نسخر من هذه الصورة الجوفاء التى كثيرا ما نقشناها وعبدناها (٥)

— الفصل الرابع —

(يدخل شارل ، برغندى ، دونوا ، دو شاتيل ، والجنود)

برغندى : لقد نسف الخندق

دونوا : مرحى ! إن المعركة فى صالحنا

شارل : (ملتفتاً إلى تالبوت) من هذا الذى يودع النهار بمثل هذا الوداع الحزين المكبوت ، فمظهره يدل على أنه إنسان اعتيادى ، إذهبوا نساعدوه ، إن كانت المساعدة جدية

(جنود من حاشية الدوفن يتقدمون إلى الأمام)

فاستولف : إلى الوراء ، إبتعدوا لا تقتربوا من الراحل البطل ، الذى كنتم تخشون التقرب منه فى الحياة .

برغندى : ماذا أرى ؟ تالبوت الجليل متخبطا فى ذمه

(يذهب برغندى إليه ، تالبوت ينظر إليه فى تمعن وتفرس ويموت)

فاستولف : ابتعد يا برغندى . لا تتلق آخر لحظة من حياة البطل بمنظر خائن

* * *

وقلما نجد فى هذا الكتاب تلك (الكلمات النارية القوية) كما يدعوها الألمان كالتى نجدها غالبا فى (اللصوص) لأن الهياج البركانى قد خف ، فبدلا من الحمم والدخان والشظايا المتطايرة نجد أشعة الشمس والعالم الزاهى . وهناك أمثلة مثيرة على هذا التبدل اللطيف فى مناظر كثيرة من مؤلفه (وولنشتاين) وكل كتبه الدراماتيكية التى أعقبت ذلك ، وخصوصا فى (وليم تيل) التى هى آخرها . وهذا التغير يمكن العثور عليه فى الكيان الشعرى فى كل هذه المؤلفات ، هذه المؤلفات التى تعتبر قصائد كاملة ، وكان أملنا أن نوفيها حقها فى الشرح ، ولكن ضيق المجال منعنا من ذلك

وأملنا كبير فى القراء المتمكنين والشراح المعنيين بأن يلتفتوا

(٤) يقصد بذلك جان دارك

(٥) تنقل هذا الكلام بأمانة شأننا فى ذلك شأن كل ما نقلناه ، ولسان حالنا يقول (ناقل الكفر ليس بكافر)

إلى هـذا . وأهم المؤلفات الشعرية التى نظمها شلر هى (ليدر وبركاوش) و (رترتو غنبرغ) و (نضال التنيرة) و (الغواص) و (كراكى — بيكى) وكلها تمتاز بالروح الإغريقية الصميمة كأنها نفحة عطرية من نفحات قيثارة أخيلوس المبقة ، أو كأنها أغان ملائكية [٦]

— فلسفته وعقيدته الكونية —

أما موهبة شلر الفلسفية وما توصل إليه فى هذا المجال الحيوى فأمر يحتاج إلى كثير من الجدل وكثير من التفكير ، وهذا مالن نطرقه الآن بإسهاب. وقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان يمتاز بقابليتين: فلسفية وشعرية . وكان تفكيره معروفاً بهاتين الصفتين ، وكان عقله قويا ، نفاذا ، نظاميا ومدرسيا أكثر منه بدهيا ، وكان هذا الميل واضحا فى جميع البحوث التى عالجها وفى أسلوب معالجته لها . وقد أثرت فلسفة التسامى Transcendentalism التى ظهرت فى عصره فيه تأثيرا كبيرا : وقد درس باعتناء زائد منهج (عمانوئيل كانت) الفلسفى ، ويظهر أنه لم يعترف به وحسب ، بل إنه اعتنق تعاليمه الرئيسية ، ولكنه مع ذلك صاغها بأسلوبه الخاص لدرجة أنها أصبحت فلسفته الخاصة وخرجت عن كونها فلسفة (كانت) . وكثير ممن لا يعرفونه معرفة حقيقية يعتقدون بأن هذه التأملات لم تنفعه فى شئ . ولكن شلر كان راضيا كل الرضى بفلسفته التى اعتنقها بعد أن صرف فى ذلك جهدا شاقا . وفى هذه الفلسفة — التى انسجمت مع شعره — تمكين لقوته الفطرية والخلقية . يقول شلر بخصوص ذلك مايلى : (أنا لا أنتظر من أعداء هذه الفلسفة الجديدة شيئا من التسامح ، كالذى أظهروه تجاه الفلسفات الأخرى ، التى لم يعرفوا عنها شيئا كما أنهم لم يعرفوا هذه ! لأن فلسفة كانت — فى قضاياها الإنسانية — لا تحتمل أى تسامح ، وهى تحمل صفة جدية لا تفسح مجالا لأية تسوية . وهذا — فى نظرى — يشرفها لأنها لا تحتمل العبث بالحق . إن هذه الفلسفة لا تناقش بمجرد هز الرأس . ففى حقل البحث الصريح الواضح الذى يمكن التوصل إليه تبنى هذه الفلسفة منهجها — فهى لا تتظلل بأى ظل — ولا تبحث عن أية تحفظات تستتر بها ، وهى تحب أن تعامل كما تعامل هى

(٦) الراسلات . ج (١)

جيرانها ، وهذا يجعلنا ننتفر لها عدم اعتدادها بغير البراهين . ولن أخشى من التفكير فى أن قانون التغيير — الذى يأتى على كل شئ — إلهى سيسرى على هذه الفلسفة أيضا ، وسينال منها منالا شديداً ، إلا أنه سيحافظ على جوهرها ، لأن النوع البشرى منذ بزوغ شمس العقل اعترف بمثل هذه المبادئ الأولية وعمل بها [٧]

إن انجازات شلر الفلسفية تخص قضايا الفن والأدب بصورة رئيسية ، وهى لا تخلو من نظرات مهمة فى مجالى التأمل : لا بل إن الفن نفسه — كما تصوره — يستند على أساس متين من مصالح الإنسان وهو بنفسه (أى الفن) يتضمن تسوية انسجامية بين هذه المصالح . لقد أخذنا على أنفسنا من مدة أن نقدم إلى قرائنا خلاصة (الرسائل الجمالية) ، هذه النتف المتماسكة العميقة من الجدول الذى قلما نجد مثيلا لها ، وبهذه الواسطة نتمكن من دراسة الصفة البارزة لشلر كفيلسوف ، وفى الوقت نفسه فالفقرتان القصيرتان الآتيتان ستقدمان دليلا على وجهة نظره فى جميع القضايا الفلسفية بدون الاحتياج إلى أى تفسير أو إيضاح . ليتكلم شلر فى هاتين الفقرتين عن (وليم مايستر) و (اعترافات القديس الجميل) التى تحتل الكتاب السادس من ذلك المؤلف فيقول : (إن الانتقال من الأديان البدائية إلى الديانة المسيحية بتجربة الخطيئة مفهوم بصورة جيدة — إننى فى الواقع — أجد فى النظام المسيحى أصول الفكرة السامية ، ولكن الصور المشوهة المختلفة لهذا النظام فى الحياة الواقعية ، تجعل هذه الفكرة مؤذية ووضيعة ، لأنها تمثل تمثيلا سيئا الفكرة الأصيلة التى تبناها واضع المسيحية الأولى . وإذا أنت درست الصفة البارزة فى المسيحية تجد أن مايميزها عن الأديان التوحيدية الأخرى هو قضاؤها على (القانون) والتوكيد الكانتى [٨] ، وبدلا من ذلك تسعى المسيحية لتحقيق الميول الحرة ؛ وهكذا تراها فى شكلها الفنى تمثل الجمال الخلقى أو تجيد ماهو مقدس ، ولهذا المعنى يمكننا أن نعتبرها الدين الجمالى الوحيد (البعيد عن التشريعات السياسية والأنظمة الدنيوية)

(٧) التوكيد على الواجب والتقيد به
(٨) المراسلات ج (٢)

وعلى هذا الأساس يمكن تفسير نجاح هذا الدين في الطبائع السوية (والدليل الواضح على ذلك هو أن أول مبشر بهذا الدين كانت امرأة : هي مريم المجدلية ، التي نسج المسيحيون حولها هالة من القداسة ووضعوها في منزلة الأصفياء والأولياء المختارين من قبل السيد المسيح) . ويقول شلر مستطردا (ولكن بصورة جدية ، وهل يمكنك أن تجد إنسانا متثقفا بدون أن يلتجئ في ساعاته الحرجة إلى الفلسفة ؟ أما أنا فإنني مقتنع تماما ، بأنه إن وجد إنسان من هذا النوع فهو مجبر على مسايرة الاتجاه الجمالي ، لأن المزاج الجمالي لا يحتاج إلى الاقتناع الذي هو وليد التأمل والتفكير ، ولا يحتاج إلى العقل المجرد إلا متى اصطدمت الإحساسات الطبيعية بالقانون الأخلاقي . والطبيعة الشاعرية السليمة لا تحتاج إلى مثل هذا القانون الصلب ، أو حتى حقوق الإنسان أو الميتافيزيقية السياسية كما تدعوها أنت (يقصد جوته) ، ويمكنك أن تضيف إلى ذلك أيضا ، بأن هذه الطبيعة لا تحتاج إلى الآلهة ولا إلى الخلود ، وما هذه النقاط الثلاث (وهي الآلهة والخلود والقانون الأخلاقي) التي تدور حولها كل المناقشات والتأملات الفلسفية بأكثر من تسلية لمثل هذه الطبيعة الشاعرية وهي لهذا السبب ليست أموراً ضرورية مطلقا)

وهذه الفقرة الأخيرة غريبة في مدلولها ، لأنها إن كانت صحيحة فهي تعتبر طبيعة شلر بالذات (طبيعة شاعرية غير سليمة) لأننا نجد هذه النقط الثلاث بارزة في مؤلفاته وبحوثه — وقبل أن ننهي موضوعنا هذا علينا ألا ننسى ملاحظة لها علاقة وثيقة بموضوعنا ، وهذه الملاحظة تتلخص في السؤال الملح الذي يوجهه كل من درس الآداب الألمانية وهو: أيهما أشعر جوته أو شلر؟ ولنا إذا سمح لنا أن نقول : إن هذا السؤال تافه وغير ذي موضوع لسببين : فأولا أن شلر وجوته يختلفان في مواهبهما اختلافا كليا سواء كان ذلك في مساعيهما أو في المجالات الثقافية العامة . ثانيا : إذا كان السؤال يعني — على العموم — المفاضلة بينهما في عظم الشأن وأهمية كل منهما بالنسبة للأدب الألماني أو الآداب العالمية ، فجواب هذا السؤال واضح كل الوضوح وهو لا يحتاج إلى تفسير مسهب ، ولو وضعنا هذا السؤال أمام شلر الحي الخجول لانتفض متعجبا من ذلك

ولم يعرف أحد خيرا منه بأن جوته ولد شاعراً ، بينما هو أصبح كذلك بتأثير المحيط (والفرق شاسع بين الطبع والتطبع) . فكما كان الأول بدهيا بروحه وانطباعاته وإيقاعه الجميل ، كان الثاني مدرسيا ، وعامل التكلف بين تمنماته . زد على ذلك بأن جوته عاش حتى أكمل رسالته الشعرية بعد أن صقلت موهبته وتهذبت ألفاظه حتى بلغت مبلغ الكمال في الإيقاع الموسيقي وفي الأداء الشاعري ، بينما نرى الثاني تخطفه يد المنون وهو لم يزل غض الإهاب شابا في روعة الرجولة وازدهارها : ولهذا السبب أثر بالغ في تقصيره عن اللحاق بجوته وعذره واضح جلي

يوسف عبد المسيح ثروت

آلام فرتر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هي القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف « جوته » الألماني

طبعت خمس مرات وثمنها ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد